الواحدية والأحدية في النص القرآني: قراءة اسلوبية

صباح عيدان حمود
كلية التربية، جامعة ميسان

المقدمة

الحمد لله على كل نعمة أنعمها وله الشكر على ما أولانا من نعمة الوجود والإيمان، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد النبي، وآله الطيبين الطاهرين. لعلّ أهم المقاصد التي يريد الخطاب القرآني* أن يوصلها إلى المتلقي بمستوياته كلها، هي الكشف عن هوية المبدع وتعريفه له؛ لأن هذا الخطاب يحمل صفة الإيصال والاتصال مع المتلقي، فـ ((لكلِّ نصٍّ ديني وحْياني رسالة يريد إيصالها للمتلقي والمخاطب))[1] ، ورسالة القران الأولى هي التأكيد على تعريف مبدع النص، ومن خلال قراءة الرؤى المختلفة لعملية الفهم التي عرض لها النص، اتضح أن للخطاب القرآني ذاتيات يريد تحقيقها، ومن ذاتيّاته إثبات وحدانية المبدع، وهذا ما يَظهر جليّاً في جميع مستويات النص الأساسية والمحورية، وبعض المستويات المتفرعة عنها في الخطاب القرآني، فالمحوري هو الذاتي في النص، والفرعي منه هو العرضي، من دون ان يكون العرضي بالضرورة غريباً عن النص، أو دخيلاً عليه ، ما يعني أن كلَّ ما يمتّ بصلة وثيقة الى رسالة النص المحورية، ومفهومها الرئيس يُعدّ ذاتياً، وكل ما لا يقترن اقتراناً ضرورياً بموضوع النص ، فهو عرضي[2] ، فالصلاة مثلا تُعدُّ من ذاتيات النص القرآني، والصوم والحج والزكاة وسائر العبادات ، ويمكن القول ، إن التركيز على محورية العلاقة بين جميع هذه الذاتيات، يدعو إلى تكريس عقيدة التوحيد، وهذا الأصل العقائدي ، يمكن أن يُعدّ أرضية صلبة للتقارب في فهم النص الديني بصورة عامة ، والنص القرآني بصورة خاصة ؛ لأن جميع الأديان والمذاهب متفقة على وحدانية الله تعالى . وتبرز قيمة البؤرة الدلالية للتوحيد، عندما تجتمع حوله كل الممارسات والأعمال لدى متلقي النص القرآني ، فجميع الصفات الذاتية للمبدع ، ترجع إلى هذه البؤرة الدلالية ، وهذا البناء العقائدي ، فهو الذي يغيّر تشكيلات الأشياء ، ولا يغيّر الأشياء بعينها ، ولا يغيّر الذوات بل يغير الصفات . [3]

لهذا أهتم المسلمون بمختلف توجهاتهم الفكرية بدراسة التوحيد ، والبحث عن جميع العلامات التي تدلّ عليه ، سواء النصية منها أم الكونية ، ولا يوجد في تلك العلامات أكثر دلالة وأعمق قصداً وأشدّ توكيداً من دلالة الخطاب القرآني؛ لذا اتجه الباحثون إلى معرفة ذاتيات هذا الخطاب وما يتفرع عنها ، بكل ما أُوتوا من قوة ، وسخّروا كل الوسائل والآليات ؛ للوصول إلى ذلك التوحيد المنشود والمبثوث من لدن المبدع في نصه المعجز . وكان الجدل بينهم متمثّلاً بعدة موارد ، يمكن أن يعرض لها البحث ، بمقارنات و بينونات مختلفة .

عبّر النص القرآني عن مبدعه بصفات تحكي عن الوحدة والتفرد ، ولعل أوضحها صفة (الواحد) بأل التعريف ، والتي وردت في ست آيات ، واللافت للنظر ، أنها في كل هذه الآيات ، جاءت مقترنة بلفظة (القهّار) ، وورد بصيغة (واحد) بدون (أل) التعريف ، إحدى عشرة مرة ، وكلها مقترنة مع كلمة (إله) ، وقد وُصف تعالى بوصف (أحد) مرة واحدة ، مقترنة مع لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى : [قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ](الإخلاص:1)، وهذا الاقتران له دلالات سيظهرها البحث في طياته إن شاء الله.

أولاً : دلالة الواحدية و الأحدية

1- دلالتهما لغة :

إن الصفات التي تعبّر صراحة عن التوحيد ، كانت مسرحاً لأبحاث المهتمين بالنص القرآني من جميع طوائف المسلمين ، ولكنّها أخذت حيّزاً أكبر في عمل المتكلمين والفلاسفة ، ودخل معهم اللغويون في ساحة البحث ، ولو بدأنا من البحث اللغوي (المعجمي) ، يلاحظ أن أكثر الآراء متفقة على أن لفظتي (واحد) و(أحد) ، مشتقتان من أصل واحد ، وهو (وَحَد) ، فالواحد عندهم اسم فاعل من وَحَدَ يحد وحداً، من باب (وعد) . أي انفرد ، فالواحد بمعنى المنفرد . والأحد: أصله (وَحَدَ) ، صفة مشبهة منه ، كـ(حَسَن) وهو بمعنى الواحد ، أبدلت الواو همزة شذوذاً [4].

وقد اعتمد أكثر الباحثين من اللغويين هذه المعاني، إلا بعض المتأخرين من الامامية ، الذين بحثوا في الدلالة اللغوية ، فقد ذهب إلى أن بين (الأحد) و(الواحد) إشتقاقاً أكبر، وليس الأحد مقلوباً عن (وَحَد)؛ بل لكلّ واحد منهما صيغة مستقلة ،

إلا أن الترجيحات كانت من نصيب بعض المعاني على حساب غيرها[5]، لكنه لم يذكر لنا هذه الصيغة التي يزعمها، وكلٌّ ينطلق من مبانيه العقلية والتفسيرية ، التي يرى صدقها وانطباقها على الدلالة التي تنسجم مع توجهه الفكري والعقائدي ، أما من جهة الدلالة الخاصة بذات المبدع ؛ فقد شقق أبو هلال العسكري الدلالة وتوسع في توضيح الفرق بين الواحد والأحد والمتوحد، وقد نسب ذلك إلى بعض المحققين قوله: ((الواحد: الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر. والأحد: الفرد الذي لا يتجزأ، ولا يقبل الانقسام. فالواحد: هو المتفرد بالذات في عدم المثل . الأحد : المتفرد بالمعنى . وقيل: المراد بالواحد: نفي التركيب والأجزاء الخارجية والذهنية عنه تعالى ، وبالأحد : نفي الشريك عنه في ذاته وصفاته . وقيل : الواحدية : لنفي المشاركة في الصفات ، و الأحدية لتفرد الذات))[6]. وقد لوحظ أن أكثر الباحثين ، قد رددوا هذه الدلالات ، بمختلف توجهاتهم الفكرية في عملية الفهم القرآني ، وظلّت هذه الدلالات محوراً تدور حوله دراسات الدارسين.

2- دلالتهما اصطلاحاً:

كان البحث التفسيري يركز في قراءاته للنص القرآني- ولاسيما ما يتعلق منه بدلالة الواحد والأحد-على الذات الإلهية، وفيما إذا كان لها ثانٍ أو شريك ؛ لذا فإن الأحدية تعني عند الشيخ الطوسي نفي الشريك ، إذ يقول: ((وإذا وصف تعالى بأنه أحد ، فمعناه أنه المختص بصفات لا يشاركه فيها غيره : من كونه قديماً وقادراً بنفسه ، وعالماً وحيّاً وموجوداً كذلك ، وأنه تحقُّ له العبادة لا تجوز لأحد سواه))[7]. وربما ألتفت الطوسي إلى أن هذه الدلالة التي ذكرها ، لا تنطبق مع المعنى اللغوي والسياقي ، الذي يثبت أن لفظة (أحد) تتضام تركيباً مع النفي؛ لذا أضاف قائلاً : ((ولا يجوز أن تكون(أحد) هذه، هي التي تقع في النفي ؛ لأنها أعمّ العام على الجملة (أحد)، والتفصيل، فلا يصلح ذلك في الإيجاب ، كقولك ما في الدار أحد؛ أي ما فيها واحد فقط ولا أكثر ، ويستحيل هذا في الإيجاب))[8] . وهو هنا يريد أن يصل إلى دلالة تنسجم مع فكره العقائدي الذي ينفي عن مبدع الخطاب، وبلسانه تعالى انه ليس بجسم ، مستنداً إلى دلالة (أحد) التي تنفي عن موصوفها التركيب من أجزاء متكثرة ، فهو يرى في قوله تعالى : (اللَّهُ أَحَدٌ) ((دليل فساد مذهب المجسمة ؛ لأن الجسم ليس بـ (أحد) ، إذ هو أجزاء كثيرة ، وقد دلّ الله بهذا القول على أنه أحد ، فصحّ انه ليس بجسم)) [9]. فدلالة المفردة في التركيب اللساني اللغوي لا تأتي إلا بمعنى (الواحد) ، تختلف عن دلالتها في التركيب القرآني حين استعملها بالإيجاب ، فكانت دلالتها نفي الشركة ، وهذا التفريق الدلالي مهم لمعرفة الدلالة القرآنية.

ويتطابق الرازي مع هذا الرأي في دلالة (أحد) و(أحدي) ، فإنها تعني: نفي التركيب ؛ ((لأن المراد من الأحدية ، كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التركيب ؛ وذلك لأن كلّ ماهية مركبة ، فهي مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره ، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل مركب فهو ممكن لذاته ، فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً))[10]، وهكذا يستدل الرازي بطريقته المنطقية المعهودة ؛ ليثبت نفي التركيب عن الذات الإلهية ، وبعدها يتوصل إلى نفي التحيّز والجهة ، وهما الصفتان اللتان لا يمكن تصورهما في حق المبدع ((وإذا ثبتت الأحدية ، وجب أن لا يكون متحيّزاً ؛ لأن كلَّ متحّيز فإن يمينه مغاير ليساره ، وكلَّ ما كان كذلك فهو منقسم ، فالأحد يستحيل أن يكون متحيّزاً ، وإذا لم يكن متحيّزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهات ، ويجب أن لا يكون حالّاً في شيء ؛ لأنه مع محله لا يكون أحداً ، ولا يكون محلاً لشيء ؛ لأنه مع حاله لا يكون أحداً ، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً ، لم يكن متغيّراً البتة ؛ لأن التغيّر لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة))[11] . فمن صيغة (أحد) ، استطاع الرازي أن يثبت كلَّ ما يمكن أن يكون في دلالة التوحيد ، وينفي كلّ ما يخالفها في حقّ مبدع هذا الوجود ومخالفته لكلّ الموجودات وهذا التفريق نلمسه عند الطباطبائي الذي يرى أن لفظة (أحد) ((وصفٌ مأخوذ من الوحدة كالواحد، غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً ؛ ولذلك لا يقبل العدّ ولا يدخل في العدد ، بخلاف الواحد ، فإن كل واحد له ثانياً وثالثاً ، إما خارجاً وإما ذهناً بتوهم أو بفرض العقل ، فيصير بانضمامه كثيراً ، وأما الأحد فكل ما فرض له ثانياً ، كان هو هو لم يزد عليه شيء))[12] ، وفيه دليل على أن هذه المفردة فيها من التكثيف الدلالي المقصود ، مما يشدّ القارئ ، إلى التأمل في سورة التوحيد بأكملها .

ثانياً : البناء الأسلوبي في سورة التوحيد :

ويبدأ التأمل في السرّ الذي جعل سورة التوحيد تساوي ثلث القران ، فقد ذكرت مصادر الحديث التي يعتمدها الفكر الإسلامي بجميع مذاهبه هذه الروايات ، ففي صحيح البخاري ((عن أبي سعيد الخدري ان رجلاً سمع رجلاً يقرأ (قلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، يردّدها فلما أصبح ، جاء إلى رسول الله ρ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها فقال رسول الله ρ : والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن))[13] ، وورد الحديث في كتب التدوين الامامي ((عن أبي عبد الله υ، قال : من قرأ (قلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) مرة واحدة ، فكأنما قرأ ثلث القرآن و ثلث التوراة وثلث الإنجيل وثلث الزبور))[14]، وهذا أن دلّ على شيء؛ فإنما يدلّ على

العمق الدلالي الذي تتميز به هذه السورة القصيرة، فهي مشحونة بدلالة التوحيد، التي تُعدّ مركزاً ومحوراً لجميع دلالات ألارتباط مع مبدع النص القرآني ، وفيها تظهر القدرة الكبيرة على قابلية اللغة ومفرداتها على اكتناز تلك الدلالات الغيبية ، متجاوزة الظاهر اللساني ، وتُشعر بحاجة القارئ إلى فكّ الاندماج المعرفي بالتعمّق الدلالي ، الذي أشار إليه الأمام علي بن الحسين υعندما سُئل عن التوحيد ، فقال: ((إن الله Y علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون ؛ فأنزل الله تعالى (قلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) والآيات من سورة الحديد إلى قوله : (وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) ، فمن رام وراء ذلك فقد هلك))[15]. ويمكن أن نطلّ على أسلوبية السورة ، ولاسيما فيما يتعلق في دلالة مفردة (أحد) ومكانها في النسيج التركيبي من خلال :

1- البناء الصوتي

إن الإيقاع الصوتي الذي أولاه النص القرآني في هذه السورة ، كان له من الأهمية الدلالية في إظهار المعنى المطلوب، وإيضاح الدلالة بأيسر الطرق، متمثّلاً بتكرار صوت الدال (المتقلقل)، الذي يوحي بالشدة والانفجارية ، المتمثلة بالنبر والترديد في القلقلة ، ((ولما كانت السورة إثباتاً وتقريراً لعقيدة التوحيد جاءت بهذا الشكل الصوتي الذي أحدثه صوت الدال؛ ليقرر الحقيقة كاملة ؛ ولينسجم الإيقاع الصوتي في هذه السورة مع الجو العام لمشهد التوحيد ، وإثباته في النفوس))[23]، مضافاً إليها تكرار صوت الهمزة الشديد . فهذا التكثيف الصوتي ، يتبعه تكثيف في الدلالة ، مما يؤكد مدى الانسجام بين الصوت والمضمون ، فالتكرير المقصود لحرف الدال، شكّل مع الأنساق الدلالية الأخرى ، نسيجاً متلاحماً لخدمة الدلالة القرآنية العامة . وهذا يفسر تماماً ، ما تتمتع به سورة الإخلاص من مساحة دلالية جعلها تعدل ثلث القران ؛ لما تحمل من دلالة التوحيد الذي هو أسّ المعرفة القرآنية ، إذ أثبتت الإحصائيات الدلالية ، إن ثلث القران يتكلم عن توحيد المبدع ، وتقديسه، وسلب الشركة عنه ومن هنا أُدخل التوحيد بجنبتيه الواحدية والأحدية ، في صلب محاور المعرفة لدى جميع المدارس الإسلامية . ولم يكن تكرير الحرف وحده من سمات الصوت في هذه السورة ، بل على الرغم من قصرها تكررت فيها مفردة (أحد) مرتين ، وهي في كل منهما تعطي دلالة مختلفة كما سيتضح .

وهذا يشير إلى مدى سعة الدلالة وعمقها اللتين تميزت بهما هذه السورة، وطاقة المفردة في داخل التركيب ، فعلى الرغم من قصرها ، إذا ما قيست إلى غيرها من السور القرآنية ، إلا إنها كانت قادرة على أن تثبت عقيدة محورية عند جميع الديانات ، وهو ما نلمسه في تدوينات التنزيل ؛ إذ ذكرت إن سبب نزولها ، كان جواباً عن سؤال تقدم به اليهود إلى رسول الله ρ[16]، فكانت كلمات قليلة ومختصرة، إمتازت بالتناسق الصوتي ، والغنى الدلالي ، وهو نوع من الاقتصاد الأسلوبي استعمله المبدع ، في أقل عدد من الحروف والكلمات لبيان دلالة معينة ، وإنه اختزال وتكثيف ، لا يؤدي إلى إخلالٍ في مقصود المبدع ، وفيه متسع من الفهم عند المتلقي ، وهذه فرادة في نسق النص ، فلا يوجد إيجاز مخلّ بالدلالة ، وإنها سمة جوهرية في بيان قابلية النص ، وإعجاز المبدع ، ومحاولة لرفع حالة التلقي إلى درجة عالية من الوعي والتدبر.

2- البناء التركيبي

ويتبين هذا التكثيف الدلالي ، بدءاً من أول صياغة نحوية استعملها النص، في صيغة فعل الأمر الذي يدلّ في بعده الزمني على حصر الحدث بالحال وزمن التكلم, فاستعمال الفعل (قل) في سياق الآيات القصيرة في سورة التوحيد ، يوحي في دلالته الظاهرية إلى الأمر بالتوحيد في زمن نزول هذه السورة ، وهنا تبرز قيمة الإعجاز القرآني ، الذي جعل هذا الفعل يخرج عن دلالته المعروفة عند العرب إلى دلالة الاستمرار في الحدث ؛ وذلك لأن الأمر هنا كان موجهاً إلى الرسول ، ومنه إلى الناس كافة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (سبأ:25) ، والأمر هنا خالد من جهة زمنه وحدثه (مقول القول) ؛ لأن حدث القول مازال مستمراً يصدح بالأمر على ترديد مفردة التوحيد ، فالنص القرآني استعمل الصيغة في سياق قولي ، لا يمكن أن يحصر في زمان الفعل الوضعي ، بل أجبره السياق القرآني على دلالة توحي بالاستمرار الذي لابد منه ، ويجعل في النص حيوية البقاء ،[17] ففي الفعل (قل) استشراف الحدث المستقبلي ، الذي يراد له التحقق في كلّ زمان ومكان ، ما يجعل من النص القرآني نصاً متحركاً ، بتحرك دلالة الفعل على الزمن ، فالسياحة اللسانية توحي بأن ((التغلغل في نسيج النص الشريف ، يكشف عن دور الفعل الحاسم في تنشيط عناصر النص ، وتفاعلها وتحريكها من أفق الحقيقة المستقرة ، إلى أفق الحقيقة المتحركة))[18] ، وربما هذا الذي أوحى لأحد الباحثين أن يفرّق بين دلالة الفعل الوضعية ، ودلالته الاستعمالية في القرآن الكريم ، ويعدّه من الاستعمال المعجز لألفاظ وقيم دلالية غير معهودة عند العرب ، على الرغم من مجيئها بلغتهم ومحاوراتهم.[19]

إلا أن باحثاً آخر يرى أن فعل الأمر (قل) فعل استعملته العرب في مخاطباتها، وزمنه الصرفي هو ما قال به النحاة ((إلا أن الزمن الصرفي لا يبقى على حاله في السياق ، والقران لم يأت بنحو جديد ، فتعليق القران للكلم على نحو ما نطقت به العرب قبل نزوله ، ولكن أسلوب التعليق في آيات سورة الإخلاص ، هي التي حولت زمن الفعل (قل) إلى

الاستمرارية))[20]، فهذا الباحث يبدو انه من مناصري نظرية النظم النحوية ، التي ترى إن القرآن استعمل النحو العربي في نظم خاص جعله نصاً معجزاً . فالقرآن نُظم بنحو لسان العرب ، ولا يوجد نحو جديد للقرآن، بل انه جمع نحوهم بنص لم يسبقه نص غيره [21].

وفي الكلام السابق إجابة لمن يثبت قراءة أُبي ، وابن مسعود . بغير (قل) هكذا: (هو الله أحد) ، وكما قيل أن النبي ρ قرأ بدون (قل هو) ، هكذا : (الله أحد الصمد) ، وهي خلاف قراءة المشهور ، فمن أثبت (قل) قال : السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره أن يحكي كل ما يقال له ، ومن حذفه ، قال : لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي ρ .[22] وفي السببين اللذين ذُكرا مآخذ ، لا يمكن القبول بها ، وهي من اجتهادات القراء ، التي يجب الحذر منها ؛ لأن النظم القرآني لم ولن يكن عاجزاً عن ألأيفاء بالدلالة ، أما علم النبي فغالباً ما كان يؤكده النص القرآني .

ومهما يكن من شيء فان دلالة الفعل هنا ، خرجت إلى ما يوحي باستمرار الحدث التوحيدي الأبدي ، الذي هو هدف من أهداف الخطاب القرآني ، فالقول المأمور به هو لإثبات مفهوم كلمة (أحد) ، واللافت للنظر أن مفردة (أحد) ظهرت في الإثبات (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وفي النفي (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ، ففي الأولى أثبتت الأحدية لله وحده ؛ لأنها لم تتضام إلا مع لفظ الجلالة ، الذي هو من خصوصيات مبدع النص ، وفي الثانية نفتها عن غيره ، وهنا قيمة أسلوبية استعملها المبدع؛ لإثبات اخصّ الصفات لذاته ، ونفيها عن غيره .

وجاء التفريق بين المصطلحين في فهم بعض متأخري الامامية ، بعد ان اختلطت آراؤهم بآراء الفلاسفة وأهل العرفان ، ولكن هذا التفريق لم يكن مطلقاً ، بل هو من باب القاعدة التي تقول:- إنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا- ، إي: أنهما إذا استعملا في نص واحد ، فهما مفترقان من جهة الدلالة ، أما إذا استعملا منفصلين ، فلا دليل على إنهما استعملا في دلالتين مختلفتين[24] .

ومن لطيف الأطروحات الدلالية في هذا الفهم، ما أشار إليه السيد محمد الصدر(قدس) ، في تفسيره لهذه السورة ((إن (أحد) من الأسماء الحسنى ، والواحد ليس منها ، وإنما هو صفة إعلامية فقط تتضمن الإخبار عن كونه تعالى واحداً لا شريك له . وحيث أن المراد في السياق ذكر الأسماء الحسنى : الله الأحد الصمد ، وصدقها على الذات ناسب ذلك ترك الواحد))[25]، فالاستعانة بالسياق هي التي أوحت للسيد الصدر ان يترك لفظ الواحد الذي لا يعده من الأسماء الحسنى ، في حين أن لفظة (الواحد) ذكرت باستفاضة في النص القرآني ، على العكس من لفظة (أحد) التي لم تذكر إلا مرة واحدة . وهذا تفريق دلالي مهم في الفصل بين دلالتي الأحد والواحد، خالفه فيه ابن عاشور وهو من الاشاعرة المحدثين إذ يقول: ((والذي درج عليه أكثر الباحثين في أسماء الله تعالى ، أن (أحد) ليس ملحقاً بالأسماء الحسنى ؛ لأنه لم يرد ذكره في حديث أبي هريرة عن الترمذي ، قال : قال رسول الله ρإنَّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، وعدّها ولم يذكر فيها وصف أحد ، وذكر وصف (واحد) وعلى ذلك درج إمام الحرمين في كتاب «الإرشاد» وكتاب «اللمع» ، والغزالي في «شرح الأسماء الحسنى)) [26]. وفي ذلك نلمح أن السنة وسيرة الباحثين ، قُدمت على النص القرآني في إثبات الأسماء الإلهية، فبينما يثبت القرآن اسم الاحدية ينفيها أبو هريرة .

وهذا من عجيب الاستدلال ، لأن لفظة (أحد) وردت في النص القرآني، واصفة لفظ الجلالة بلا لبس ، في حين لفظة الواحد لم ترد واصفة له بصورة مباشرة.

تبيّن مما مضى؛ أن كلمة (أحد) هي غير كلمة (واحد) في الفهم الإمامي، وملخص هذا الفهم ، يُثبتُ إنه عندما يقال: واحد ، فإن هذا يعني توحيد الذات ، فأما القول بأن الله (أحد) ، فهو توحيد الصفات ، أي على الرغم من وجود صفات متعددة للمبدع ، فإن التكثير والتجزئة ، لا تصح بحقه تعالى ، فهو أحدي الذات ، ولا يمكن الفصل بين ذاته وصفاته ؛ لأن الفصل إذا تم ، ستكون الصفة إما حادثة ، فيحتاجها الله تعالى ، فيكون محتاجاً ، وهو من دواعي النقص تعالى الله عن ذلك . أو قديمة، فيلزم تعدد القدماء ؛ فتكون الصفة عين الذات والذات عين الصفة[27]، وهو ما لم يقل به الامامية ولا المعتزلة . أما الاشاعرة فيمكن تلخيص رأيهم في قول ابن عاشور: ((فوصف الله بأنه (أحد) معناه: أنه منفرد بالحقيقة ، التي لوحظت في اسمه العلَم وهي الإلهية المعروفة ، فإذا قيل : (اللَّه أحد) ، فالمراد أنه منفرد بالإلهية ، وإذا قيل : الله واحد ، فالمراد أنه واحد لا متعدد ، فمَن دونه ليس بإله . ومآل الوصفين إلى معنى نفي الشريك له تعالى في إلهيته))[28]، وهو يوضح الميل إلى أن تكون المفردتان متحدتين في الدلالة ، وهذا الرأي هو ما عبر عنه من قبْل أكثر الاشاعرة [29].

أما سيد قطب فله وجهة نظر أخرى قريبة من الفهم الامامي ، إذ يرى أن (أحد) ((لفظ أدق من لفظ (واحد) ؛ لأنه يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شي ء غيره معه، وأن ليس كمثله شيء))[30]. وهذا يثبت أن بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً على قاعدة المناطقة، إذ إن (أحد) أخص في الإطلاق على المبدع وحده ، وهذا يفسر انتظامه مع لفظ الجلالة المختص به تعالى .

وربما يفسر لنا هذا معنى اقتران (الواحد) مع (القهار)، في جميع الآيات التي وردت فيها لفظة الواحد المعرف بالألف واللام، واقتران لفظة واحد مع لفظة (إله) التي تنطبق على كل معبود ، في حين تقترن لفظة (أحد) مع لفظ الجلالة المختص بالذات الإلهية .

فلابد إذن من بلورة معنى الوحدة ، ومعرفة الواحد الذي تردد في النص القرآني كثيراً ، كما في قوله تعالى: (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِد) (الأعراف : 73) وفي قوله تعالى: (وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)(الرعد:16) وهكذا تأتي ضرورة معرفة معنى الواحد ((فمن دون فهم مسألة الواحد وما يعنيه ، لا تتيسر عملية فهم بقية معارف التوحيد ، فهذه المسألة هي القاعدة التحتية التي ينهض عليها بناء المعرفة التوحيدية ، فيما يحويه من أجزاء وتفاصيل))[31]، إذ اتفق الجميع على وحدانية الله تعالى ، كما أنهم اتفقوا على ان القران نص الهي صدر من الأحد الفرد الصمد ، فمبدعه واحد ليس له شريك في تكوين هذا النص وإبداعه ، اللهم إلا في عملية التوصيل والتداول ، فيشترك فيها الوحي والرسول في عملية الإبداع.

الخاتمـــــــة

تبين للباحث من هذه القراءة الموجزة بعض النتائج المهمة منها:

1- صفة التوحيد الإلهي تعد البؤرة الرئيسة للمعرفة الإنسانية ، التي تتمحور حولها جميع العبادات والمعاملات ؛ لذا نالت اهتماما كبيرا من لدن الباحثين للنص الديني.
2- الأحدية والواحدية من الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه في النص القرآني ، إلا أن الاحدية تمثل الوصف الأخص الذي لا يوصف به غيره .
3- على الرغم من وحدة الاشتقاق بين المفردتين ، ذهب أكثر الباحثين في الدلالة التفسيرية ، إلى التفريق بينهما ، ووجد البحث أن تضامهما مع ألفاظ بعينها أعطاهما دلالات خاصة بكل واحد منهما.
4- القيمة الدلالية لسورة التوحيد اكتسبتها من خصوصية ذكر لفظة (أحد) ، وهي صفة اختصت بها الذات الإلهية ، فأكد النقل ، على معادلتها لنص القرآن.
5- التوجهات المذهبية في معرفة الله تعالى ، ولاسيما ما يتعلق منها في الصفات ، تركت أثراً في فهم دلالة الألفاظ في النص القرآني بصورة عامة ، ؛ لذا تشكلت لنا مناهج تفسيرية متعددة .

وهناك نتائج مهمة على المستوى اللغوي والدلالي يمكن معرفتها من قراءة البحث.

والله ولي التوفيق

الهوامش

- المراد من الخطاب هنا ما يتجاوز دلالة النص ، فينظر اليه بثلاثية الباث والمتلقي مع النص .

(1) مقاربات في فهم الدين: 24
(2) ظ العرضي والذاتي في النص ، علي رضا قائمي ، مجلة المحجة ، العدد السادس :69
(3) ظ المعنى القرآني بين التفسير والتأويل ، دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني ، 170
(4) ظ : تاج اللغة وصحاح العربية مادة (أحد): 44 و ظ: لسان العرب مادة (أحد) 3: 70 ،و ظ : مجمع مادة(أحد) 1: 42
(5) ظ التحقيق في كلمات القران 1: 44 و 13: 52
(6) معجم الفروق اللغوية
(7) التبيان في تفسير القران 10 :430
(8) المصدر نفسه 10 :430
(9) المصدر نفسه
(10) التفسير الكبير23:180
(11) الميزان في تفسير القران 20: 387
(12) التفسير الكبير32 :180
(13) صحيح البخاري 6 :105
(14) التوحيد للصدوق:95
(15) الأصول من الكافي 1: 91
(16) روى الكليني عن أحمد بن إدريس مسندا عن أبي عبد الله ع قال : إن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : انسب لنا ربك . فلبث ثلاثا لا يجيبهم . ثم نزلت : قل هو الله أحد - إلى آخرها ظ : الأصول من الكافي 1 : 91
(17) ظ : رؤية لسانية في الإعجاز القرآني :77
(18) مداخل جديدة للتفسير : 114

(19) ظ : الإعجاز النحوي في القران :142
(20) رؤية لسانية في الإعجاز القرآني :77
(21) ظ: المصدر نفسه :78
(22) ظ :التفسير الكبير 32: 178
(23) الإيقاع أنماطه ودلالاته في لغة القران الكريم ، دراسة أسلوبية دلالية:120
(24) ظ : التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته 1: 11
(25) منة المنان في الدفاع عن القران:91
(26) تفسير التحرير والتنوير 30 :615
(27) ظ :المنهج ألاستنطاقي في علم الكلام الجديد :124
(28) التحرير والتنوير 30 :614
(29) ظ: التفسير الكبير 32: 180
(30) في ظلال القران ،المجلد السادس:4002
(31) التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته 1: 11

المصادر والمراجع

- القران الكريم
1. الأصول من الكافي ، تأليف ثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي رحمه الله المتوفى سنة 328 / 329 هـ ،صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري دار الكتب الإسلامية - طهران - الطبعة الثالثة- 1388 هـ
2. الإعجاز النحوي في القران ، د. فتحي عبد الفتاح الدجني ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة الأولى – 1984
3. الإيقاع أنماطه ودلالاته في لغة القران الكريم ، دراسة أسلوبية دلالية ، عبد الواحد زيارة اسكندر المنصوري ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة البصرة ،1995
4. تاج اللغة وصحاح العربية تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت- لبنان ، الطبعة الرابعة 1407 هـ - 1987 م
5. التبيان في تفسير القران ، تأليف: شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (385 - 460هـ) تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي ، مطبعة النعمان – النجف الاشرف 1383 هـ-1964 م
6. التحقيق في كلمات القران ، تأليف المحقق المفسر العلامة المصطفوي ، مركز نشر العلامة المصطفوي ،الطبعة الأولى ، 1385 هـ ش ، طهران
7. تفسير التحرير والتنوير ، الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس-1984 م
8. التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي،الطبعة الثالثة، د.ت
9. التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته ، تقريرا لدروس السيد كمال الحيدري ، جواد علي كسار ، دار فراقد للطباعة والنشر ، ط/4 ، 1425 هـ -2004 م
10. التوحيد للشيخ الجليل الأقدم الصدوق أبي جعفر محمد علي بن الحسين بن بابويه القمي المتوفى سنة 381 صححه وعلق عليه المحقق البارع السيد هاشم الحسيني الطهراني منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة، د.ت
11. رؤية لسانية في الإعجاز القرآني ، د.حمزة فاضل يوسف ، رند للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق، الطبعة الأولى-2010م
12. صحيح البخاري الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1401 هـ - 1981 م
13. العرضي والذاتي في النص ، علي رضا قائمي ، مجلة المحجة ، العدد السادس السنة العاشرة
14. في ظلال القران ، سيد قطب ،دار الشروق ، القاهرة، الطبعة الرابعة والعشرين 1425هـ-2004م
15. لسان العرب ، للإمام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري ، نشر أدب الحوزة قم - إيران 1405 هـ- 1363 ق .ش
16. مجمع البحرين تأليف العالم المحدث الفقيه الشيخ فخر الدين الطريحي،(ت1085) ت: السيد أحمد الحسيني ، مكتب النشر للثقافة الإسلامية ، الطبعة الثانية ،1408
17. مداخل جديدة للتفسير ،غالب حسن دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى، 1424هـ- 2003م
18. معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزءا من كتاب السيد نور الدين الجزائري تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة الطبعة ، الأولى شوال المكرم 1412هـ

19. المعنى القرآني بين التفسير والتأويل ، دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني ، عباس أمير ، مؤسسة الانتشار العربي ،بيروت-لبنان، الطبعة الأولى _ 2008 :
20. مقاربات في فهم الدين، د حبيب فياض ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ، الطبعة الأولى ، بيروت -2008
21. منة المنان في الدفاع عن القران ، آية الله العظمى الشهيد السيد محمد الصدر،دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ،الطبعة الأولى 1423 هـ -2002م
22. المنهج ألاستنطاقي في علم الكلام الجديد ، أحمد قاسم آل بزرون و حسين علي جليح ، فراديس للنشر والتوزيع، مملكة البحرين ،الطبعة الأولى - 2008 م
23. الميزان في تفسير القران ، تأليف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة ، د.ت